تحليل إعلامي

الشهيد الحاج قاسم سليماني

الخطاب الجهادي في مواجهة المشروع الأمريكي

"في أنظمة الجيوش، يشرح القائد للجنود الخطة، فينزل الجندي إلى المعركة، أما نحن، فإننا ننزل إلى الميدان ونطلب من الجندي أن يلحق بنا". يقول قاسم سليماني في إحدى الجلسات ويرددها في مناسبات أخرى.

الواقع أن القادة والمقاتلين العراقيين، لم يروا قاسم سليماني مستشارًا عسكريًا جاء من إيران لينظّر عليهم في خطاباته الجهادية، بل رأوه أمامهم في الميدان جاهزًا لأن يُقتل على جبهاتهم. يروي مقاتلو الحشد الشعبي كيف كان يُسمع صوته على الجهاز اللاسلكي في أول لحظة تمهيد ناري لأية عملية. لقد حضر سليماني بوجدانهم تمامًا كما حضر في جبهاتهم، فكان لخطابه الأثر الأكبر على حضورهم وعلى معنوياتهم.

لكن كيف حضر سليماني في جبهة المقاومة العراقية؟

إزالة التصوّر الخاطئ عن قوة العدو

في مذكراته عن الحرب المفروضة على إيران في أول ثمانينيات القرن الماضي، وفي أول أيام التحاقه بالجبهة، يقول سليماني: "اعتقدت أن العدو قادر على القيام بأي شيء، لكنّنا تمكّنا في أوّل هجوم لنا من إرغامه على التقهقر وكبّدناه خسائر أيضًا .وقد أدّى هذا الأمر إلى زوال التصوّر الخاطئ عن العدو من ذهني". وعندما دخلت داعش بدون أي مقاومة إلى الموصل والفلوجة ومناطق رئيسية في العراق، وتم إعلان تنظيم الدولية الإسلامية في العراق والشام، بدا للعراقيين أن العدو قادر على القيام بأي شيء، فكان على قاسم سليماني أن يقنعهم بضرورة المواجهة ليتمكنوا من معرفة قدراتهم للدفاع عن مقدراتهم، وبالتالي يزول هذا التصور الخاطئ التي أريد للشعب العراقي أن يعيشه ويخضع له، فسقوط الموصل الدراماتيكي والذي أحبط الجميع حصل بسبب "انسحاب الجيش والشرطة والضباط والقادة بأوامر سياسية من الأحزاب والمنظمات التي ينتمون إليها". يقول رئيس الوزراء العراقي السابق نوري المالكي.

خطاب ثوري لا سياسي

الواقع أنه لدى رصد خطاب قاسم سليماني على كل جبهات المقاومة، من فلسطين إلى لبنان فسوريا والعراق واليمن، ثمة مجموعة من المفاهيم كان يرددها دائمًا على الجبهات، اللافت أنها لم تحمل طابعًا سياسيًا، بل كانت مرتكزات ثورية. كلها تكونت وترسّخت من الجبهة الإيرانية، فأسست في وجدانه عقيدته القتالية. فهو في كلّ مساره العسكري في مختلف الميادين، لم يجد نفسه منفصلًا عن الخطاب الثوري للإمام الخميني، ويقول في هذا السياق: "يفسر البعض الحسّ الثوري بأنه الفوضى والهرج والمرج وعدم الانضباط. وهذا تعبير جبان، ذلك أن أهم مشخصات الإدارة الثورية هي الروحية، وإمامنا الراحل كان مصداقًا حقيقيا للعمل والإدارة الثورية. الثورة هي أن تختار الموت على عيش الذل...اليوم هناك هجمة واسعة على مجتمعنا، ووحده الفكر الثوري القادر على الصمود".

لقد كانت كلمات الجنرال سليماني الحماسية التي كان يلقيها على الجبهات العراقية قبل العمليات وبعدها تتضمن ذكر الشهداء ومفاهيم الشهادة من تضحية وخوف من الغفلة والدفاع عن الإسلام والمقدسات والأهل والأرزاق. فكان يقول: "إن حفظ الإسلام والأصول الإسلامية تختلف اليوم عن الأمس، لأن هناك تغيرات كبيرة حصلت على مستوى العالم. فلو أن المساجد، مثلًا، روّجت اليوم للمعنويات فقط من دون تشخيص المسار لتحقيقها، لما استطعنا الدفاع". فالهندسة العقائدية للمقاتلين كانت على أسس متعددة، أولها أنهم ليسوا مقاتلين فحسب بل لديهم مهمّة دفاع مقدّسة. ثانيها أنهم ليسوا فقط مدافعين عن أهلهم وأرزاقهم وأنفسهم، بل هم يدافعون عن إخوانهم من السنة والمسيحيين والعرقيات المختلفة. أما ثالثها بأنهم ليسوا حارسين لمقاماتهم ومقدساتهم فقط، بل هم حرّاس العراق كله. وقد تحدث في ذكرى أربعين شهيد معارك الموصل اللواء شعبان نصيري واصفًا هذا الواقع فقال: "ما تجدونه من تضامن شعبي، هذا التضامن النادر أن الشيعة من البصرة والناصرية ومن العمارة ومن جميع المناطق مدوا يد العون التي كانت تحت ظلم داعش، قدموا دماءهم لإنقاذ الشباب السنة، هذا له قيمة كبيرة، أثبت أن الطوائف يمكن أن يكونوا إخوانًا في الوطن وأنّ دماءهم واحدة".

وعي القادة بالمشروع الأمريكي

أما على مستوى القادة، فقد رأى أن الوعي بالمشروع الأمريكي هو أهم عوامل الانتصار، وقد عرفوا أن داعش قضية سياسية قبل أن تكون قضية أمنية. وإلا لكانوا توقّفوا عن القتال بمجرّد الانتهاء من تأمين مناطقهم ومقدّساتهم، إلا أنهم أكملوا الطريق، لوعيهم بتكامل المشروع ضدّ العراق وإيران وسوريا ولبنان أي ما يطلق عليه محور المقاومة. لقد كانوا على مستوى عالٍ من الوعي وكانوا مؤيدين لما كان يؤمن به سليماني عندما قال: "لو أطلقنا شعار خرمشهر أولًا أو القدس أولًا أو كربلاء أولًا، فهذا ليس بشعار حقيقي". الشعار الحقيقي هو أن تكون مصلحة الأمة الإسلامية أولًا في وجه المشروع الأمريكي في المنطقة.

فكره السياسي

"لقد كان مفكرًا سياسيًا وصاحب فكر سياسي وشخصيته السياسية لا تقل أهمية عن الجانب العسكري". يقول في حقه الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصر الله. ذلك أن متابعته للساحات المتعددة وصلته بالسياسيين فيها، كانت توفّر لديه معطيات شاملة من جهة، ومن جهة أخرى كان فكره وتحليلاته توصله إلى استنتاجات كان لها مصداق وواقع استراتيجي في المنطقة. وقد كان لديه جملة يرددها دائمًا: "الحشد الشعبي هو مستقبل العراق"، آمن بها العراقيون كما آمنوا بقاسم سليماني الجنرال العسكري. اللافت في خطاباته أيضًا أنه لم يقل يومًا أن المعركة انتهت، إلا أن ما تمّ إنجازه حتى الآن هو إنجاز تاريخي وأن هذه المعركة تصنع تاريخ العراق، ليس بوجه أبناء العراق الذين تمّ التغرير بهم، بل بوجه أمريكا وشركائها في المنطقة.

فتوى المرجعية

أما ما كان يراه الجنرال سليماني أهم من ذلك كله، فقد كان فتوى المرجعية. علاقته بالمرجع آية الله السيد السيستاني كانت قد بدأت منذ سقوط صدّام. وتطوّرت بعد تأسيس الحشد الشعبي. كان سليماني يرى في فتوى المرجعية بواجب الانضمام إلى الحشد الشعبي أولى بشائر الانتصار، ولا ينفكّ يتحدّث عن أهمية الفتوى ودور المرجعية في إفشال المشروع الأمريكي. "هذا الرجل العارف المدرك لظروف زمانه، ويتخذ القرار في محله وتوقيته الصحيح هو الذي حرّك الشارع والشباب العراقي المتمثل بالحشد الشعبي المقدس، وهو إنسان حكيم في توقيته المناسب وبجامعيته وشموليته للعراق والمكون العراقي، لقد أنقذ العراق". يقول قاسم سليماني.

كان لافتًا الظهور الإعلامي النادر لـ "الجنرال الصامت" الذي لم يتنقل فقط بين الجبهات العسكرية المختلفة في محور المقاومة، بل تنقل أيضًا بين العواصم ومراكز القرار المتنوعة. لم يظهر في مقابلات إعلامية أو مؤتمرات صحفية للإعلان عن إنجازاته. لقد اقتصر ظهوره على الجبهات وعلى منابر مناسبات الشهداء متحدّثًا عن الشهيد والشهادة، ومجدّدًا العداء للولايات المتحدة ومشاريعها في المنطقة. ولعلّ ما زاد من جاذبيته لدى الإعلام الغربي هو هذا الزهد بالظهور. وقد صنّفته مجلة فورين بوليسي ضمن قائمة أفضل عشرة مفكرين في العالم في المجال الدفاعي الأمني عام 2013، ووصفته صحيفة لوموند الفرنسية بـ "أقوى رجل في الشرق الأوسط" عام 2017، بالإضافة إلى الكثير من المقالات التي حضر فيها سليماني بصفته عدوًا محبوبًا، أو عدوًا يستحق الاحترام والتقدير.